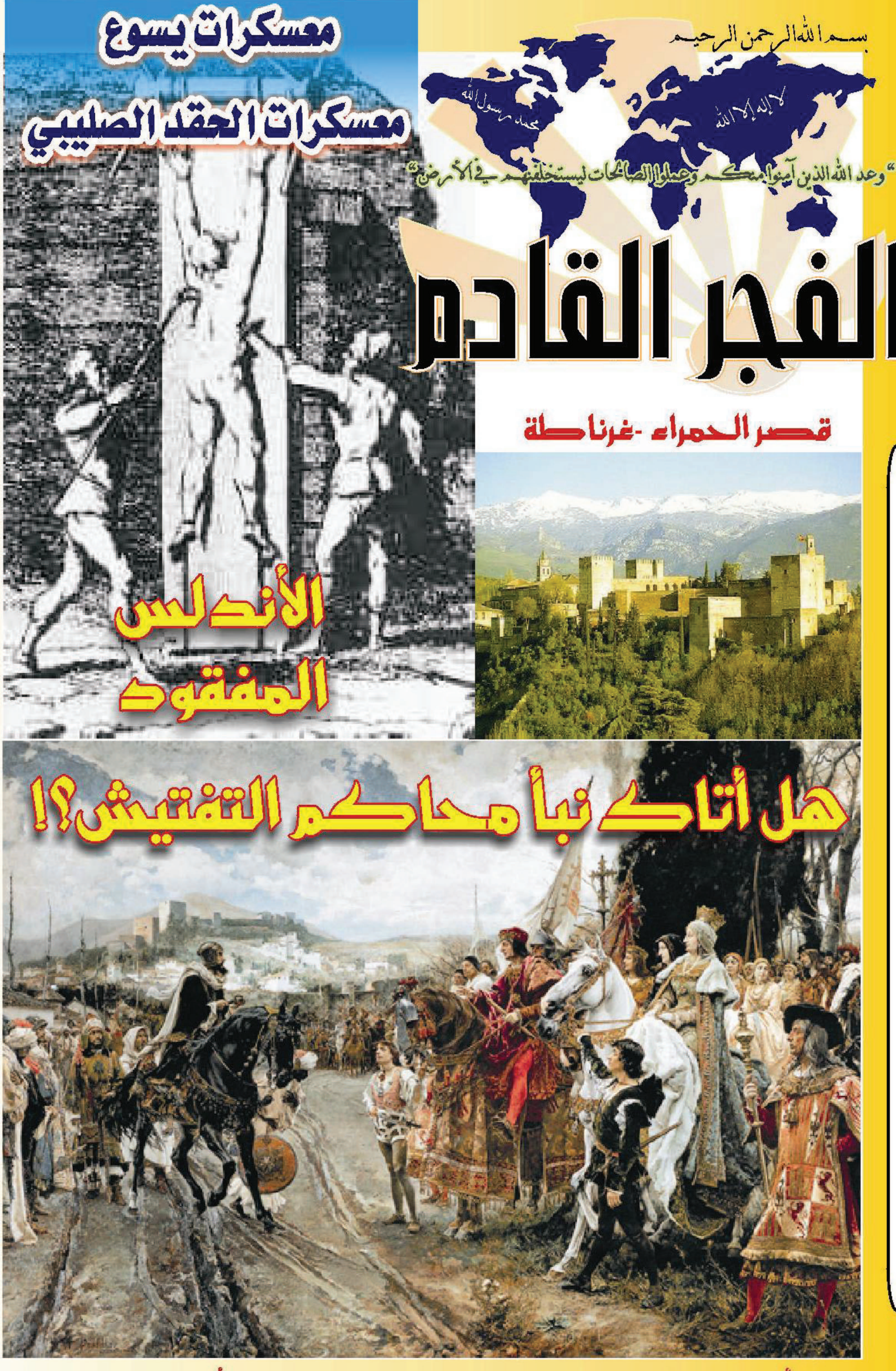


الفجر القادم . مجلة ثقافية دورية تصدر شهريا . العددين 108-109 . محرم-صفر ١٤٢٩هـ فبراير-مارس ٢٠٠٨م

لوحة: أبي عبد الله الصغير يسلم مفاتيح غرناطة للأسبان الصليبيين

الأندلس المفقود .. واقع يتجدد .. وحقد صليبي قديم جديد

محمد الصغير..قصة واقعية من الأندلس المفقود

قال: كنت يومئذ صغيراً، لا أفقه شيئاً مما كان يجري في الخفاء، ولكني كنت أجد أبي ــ رحمه الله ــ يضطرب، ويصفر لونه، كلما عدت من المدرسة، فتلوت عليه ما حفظت من "الكتاب المقدس"، وأخبرته بما تعلمت من اللغة الإسبانية، ثم يتركني ويمضي إلى غرفته التي كانت في أقصى الدار، والتي لم يكن يأذن لأحد بالدنو من بابها، فلبث فيها ساعات طويلة، لا أدري ما يصنع فيها، ثم يخرج منها محمر العينين، كأنه كان بكى بكاءً طويلاً، ويبقى أياماً ينظر إليّ بلهفة وحزن، ويحرك شفتيه، فعل من يهم بالكلام، فإذا وقفت مصغياً إليه ولاني ظهره وانصرف عني من غير أن يقول شيئاً، وكنت أجد أمي تشيعني كلما ذهبت إلى المدرسة، حزينة دامعة العين، وتقبلني بشوق وحرقة، ثم لا تشبع مني، فتدعوني فتقبلني مرة ثانية، ولا تفارقني إلا باكية، فأحس نهاري كله بحرارة دموعها على خدي، فأعجب من بكائها ولا أعرف له سبباً، ثم إذا عدت من المدرسة استقبلتني بلهفة واشتياق، كأني كنت غائباً عنها عشرة أعوام، وكنت أرى والديّ يبتعدان عني، ويتكلمان همساً بلغة غير اللغة الإسبانية، لا أعرفها ولا أفهمها، فإذا دنوت منهما قطعا الحديث، وحوّلاه، وأخذا يتكلمان بالإسبانية، فأعجب وأتألم، وأذهب أظن في نفسي الظنون، حتى أني لأحسب أني لست ابنهما، وأني لقيط جاءا به من الطريق، فيبرح بي الألم، فأوي إلى ركن في الدار منعزل، فأبكي بكاءً مراً.

وتوالت علي الآلام فأورثتني مزاجاً خاصاً، يختلف عن أمزجة الأطفال، الذين كانوا في مثل سني، فلم أكن أشاركهم في شيء من لعبهم ولهوهم، بل أعتزلهم وأذهب، فأجلس وحيداً، أضع رأسي بين كفي، واستغرق في تفكيري، أحاول أن أجد حلاً لهذه المشكلات.. حتى يجذبني الخوري من كم قميصي، لأذهب إلى الصلاة في الكنسية.

وولدت أمي مرة، فلما بشرت أبي بأنها قد جاءت بصبي جميل، لم يبتهج، ولم تلح على شفتيه ابتسامة، ولكنه قام يجر رجله حزيناً ملتاعاً، فذهب إلى الخوري، فدعاه ليعمد الطفل، وأقبل يمشي وراءه، وهو مطرق برأسه إلى الأرض، وعلى وجهه علائم الحزن المبرح، واليأس القاتل، حتى جاء به إلى الدار ودخل به على أمي..

فرأيت وجهها يشحب شحوباً هائلاً، وعينيها تشخصان، ورأيتها تدفع إليه الطفل خائفة حذرة.. ثم تغمض عينيها، فحرت في تعليل هذه المظاهر، وازددت ألما على ألمي.

حتى إذا كان ليلة عيد الفصح، وكانت غرناطة غارقة في العصر والنور، والحمراء تتلألأ بالمشاعل والأضواء، والصلبان تومض على شرفاتها ومآذنها، دعاني أبي في جوف الليل، وأهل الدار كلهم نيام، فقادني صامتاً إلى غرفته، إلى حرمه المقدّس، فخفق قلبي خفوقاً شديداً واضطربت، لكني تماسكت وتجلدت، فلما توسط بي الغرفة أحكم إغلاق الباب، وراح يبحث عن السراج، وبقيت واقفاً في الظلام لحظات كانت أطول عليّ من أعوام، ثم أشعل سراجاً صغيراً كان هناك، فتلفتّ حولي فرأت الغرفة خالية، ليس فيها شيء مما كنت أتوقع رؤيته من العجائب، وما فيها إلا بساط وكتاب موضوع على رف، وسيف معلق بالجدار، فأجلسني على هذا البساط، ولبث صامتاً ينظر إليّ نظرات غريبة اجتمعت علي، هي، ورهبة المكان، وسكون الليل، فشعرت كأني انفصلت عن الدنيا التي تركتها وراء هذا الباب، وانتقلت إلى دنيا أخرى، لا أستطيع وصف ما أحسست به منها.. ثم أخذ أبي يدي بيديه بحنو وعطف، وقال لي بصوت خافت:

يا بني، إنك الآن في العاشرة من عمرك، وقد صرت رجلاً، وإني سأطلعك على السر الذي طالما كتمته عنك، فهل تستطيع أن تحتفظ به في صدرك، وتحبسه عن أمك وأهلك وأصحابك والناس أجمعين؟

إن إشارة منك واحدة إلى هذا السر تعرض جسم أبيك إلى عذاب الجلادين من رجال "ديوان التفتيش".

فلما سمعت اسم ديوان التفتيش ارتجفت من مفرق رأسي إلى أخمص قدمي، وقد كنت صغيراً حقاً، ولكني أعرف ما هو ديوان التفتيش، وأرى ضحاياه كل يوم، وأنا غاد إلى المدرسة، ورائح منها ــ فمن رجال يصلبون أو يحرقون، ومن نساء يعلقن من شعورهن حتى يمتن، أو تبقر بطونهن، فسكتُ ولم أجب.

فقال لي أبي : مالك لا تجيب! أتستطيع أن تكتم ما سأقوله لك؟

قلت: نعم .

قال: تكتمه حتى عن أمك وأقرب الناس إليك؟

قلت: نعم

قال: أقترب مني. أرهف سمعك جيداً، فإني لا أقدر أن أرفع صوتي. أخشى أن تكون للحيطان آذان، فتشي بي إلى ديوان التفتيش، فيحرقني حياً.

فاقتربت منه وقلت له:

إني مصغ يا أبت.

فأشار إلى الكتاب الذي كان على الرف، وقال:

أتعرف هذا الكتاب يا بني؟

قلت: لا

هذا كتاب الله.

قلت : الكتاب المقدس الذي جاء به يسوع بن الله؟!.

فأضطرب وقال:

كلا، هذا هو القرآن الذي أنزله الله، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، على أفضل مخلوقاته، وسيد أنبيائه، سيدنا محمد بن عبد الله النبي العربي صلى الله عليه وسلم.

فتحت عيني من الدهشة، ولم أكد افهم شيئاً.

قال: هذا كتاب الإسلام، الإسلام الذي بعث الله به محمداً إلى الناس كافة.. فظهر هناك.. وراء البحار والبوادي.. في الصحراء البعيدة القاحلة.. في مكة في قوم بداة، مختلفين، مشركين، جاهلين، فهداهم به إلى التوحيد، وأعطاهم به الاتحاد، والقوة، والعلم والحضارة، فخرجوا يفتحون به المشرق والمغرب، حتى وصلوا إلى هذه الجزيرة، إلى إسبانيا، فعدلوا بين الناس، وأحسنوا إليهم، وأمنوهم على أرواحهم وأموالهم، ولبثوا فيها ثمانمئة سنة.. ثمانمئة سنة، جعلوها فيها أرقى وأجمل بلاد الدنيا.

نعم يا بني نحن العرب المسلمين..

فلم أملك لساني من الدهشة والعجب والخوف، وصحت به: ماذا.؟ نحن؟ .. العرب المسلمين!

قال: نعم يا بني. هذا هو السر الذي سأفضي به إليك.

نعم نحن. نحن أصحاب هذه البلاد، نحن بنينا هذه القصور، التي كانت لنا فصارت لعدونا، نحن رفعنا هذه المآذن التي كان يرن فيها صوت المؤذن، فصار يقرع فيها الناقوس، نحن أنشأنا هذه المساجد، التي كان يقوم فيها المسلمون صفاً بين يدي الله، وأمامهم الأئمة، يتلون في المحاريب كلام الله، فصارت كنائس يقوم فيها القسوس والرهبان، يرتلون فيها الإنجيل.

قصر الحمراء - غرناطة



نعم يا بني .. نحن العرب المسلمين، لنا في كل بقعة من بقاع إسبانيا أثر، وتحت كل شبر منها رفات جد من أجدادنا، أو شهيد من شهدائنا. نعم .. نحن بنينا هذه المدن، نحن أنشأنا هذه الجسور، نحن مهدنا هذه الطرق، نحن شققنا هذه الترع، نحن زرعنا هذه الأشجار.

ولكن منذ أربعين سنة.. أسامع أنت؟ منذ أربعين سنة خدع الملك البائس أبو عبد الله الصغير، آخر ملوكنا في هذه الديار، بوعود الإسبان وعهودهم، فسلمهم مفاتيح غرناطة، وأباحهم حمى أمته، ومدافن أجداده، وأخذ طريقه إلى بر المغرب، ليموت هناك وحيداً فريداً، شريداً طريداً وكانوا قد تعهدوا لنا بالحرية والعدل والاستقلال.

فلما ملكوا خانوا عهودهم كلها، فأنشؤوا ديوان التفتيش، فأدخلنا في النصرانية قسراً، وأجبرنا على ترك لغتنا إجباراً، وأخذ منا أولادنا، لينشئهم، على النصرانية، فذلك سر ما ترى من استخفائنا بالعبادة، وحزننا على ما نرى من أمتهان ديننا، وتكفير أولادنا.

أربعون سنة يا بني، ونحن صابرون على هذا العذاب، الذي لا تحمله جلاميد الصخر، ننتظر فرج الله، لا نيأس لأن اليأس محرم في ديننا، دين القوة والصبر والجهاد.

هذا هو السر يا بني فاكتمه، واعلم أن حياة أبيك معلقة بشفتيك، ولست والله أخشى الموت أو أكره لقاء الله، ولكني أحب أن أبقى حياً، حتى أعلمك لغتك ودينك أنقذك من ظلام الكفر إلى نور الإيمان، فقم الآن إلى فراشك يا بني.

صرت من بعد كلما رأيت شرف الحمراء أو مآذن غرناطة، تعروني هزة عنيفة، وأحس بالشوق والحزن، والبغض والحب، يغمر فؤادي، وكثيراً ما ذهلت عن نفسي ساعات طويلة فإذا تنبهت أطوف بالحمراء وأخاطبها وأعاتبها..

ثم أخاف أن يسمعني بعض جواسيس الديوان، فأسرع

الكرة إلى الدار لأحفظ درس العربية، الذي كان يلقيه عليّ أبـــي، وكأني أراه الآن يأمرني أن أكتب له الحـرف الأعجمي، فيكتب لي حـذاءه الحـرف العربي، ويقول لي: هذه حروفنا. ويعلمني النطق بها ورسـمها، ثم يلقـــي عليّ درس الدين، ويعلمني الوضوء والصلاة لأقوم وراءه نصلي خفية في هذه الغرفة الرهيبة.

وكان الخوف من أن أزل فأفشي السـر، لا يفارقــه أبداً، وكان يمتحنني فيدس أمي إليّ فتسألني:

ماذا يعلمك أبوك؟

فأقول: لا شيء

فتقول: إن عندك نبأ مما يعلمك، فلا تكتمه عني.

فأقول: إنه لا يعلمني شيئاً.

حتى أتقنت العربية، وفهمت القرآن، وعرفت قواعد الدين، فعرفني بـأخ له في الله، نجتمع نحـن الثلاثة على عبادتنا وقرآننا.

وأشتدت بـعد ذلك قسـوة ديوان التفتيش، وزاد في تنكيله بالبقية الباقية من العرب، فلم يكن يمضي يوم لا نرى فيه عشرين أو ثلاثين مصلوباً، أو محرقـاً بالنار حياً، ولا يمضي يوم لا نسمع فيه بـالمئات، يعذبون أشد العذاب وأفظعه، فتقـلع أظافرهم، وهم يرون ذلك بأعينهم، ويسقـون الماء حـتى تتقطـع أنفاسهم، وتكوى أرجلهم وجنوبهم بالنار، وتقـطـع أصابعهم وتشـوى وتوضع في أفواههم، ويجلدون حتى يتناثر لحمهم.

واستمر ذلك مدة طويلة، فقال لي أبي ذات يوم: إني أحس يا بني كأن أجلي قد دنا وأني لأهوى الشـهادة على أيدي هؤلاء، لعل الله يرزقني الجنة، فأفوز بها فوزاً عظيماً، ولم يبـق لي مأرب في الدنيا بـعد أن أخرجتك من ظلمة الكفر، وحملتك الأمانة الكبرى، التي كدت أهوي تحت أثقالها، فإذا أصابني أمر فأطع عمك هذا ولا تخالفه في شيء.

ومرّت على ذلك أيام، وكانت ليلة سـوداء من ليالي السِّرار، وإذا بعمي هذا يدعوني ويأمرني أن أذهب معه، فقد يسر الله لنا سبيل الفرار إلى عدوة المغرب بلد المسلمين فأقول له: أبي وأمي.؟

فيعنف عليّ ويشدّني من يدي ويقول لي: ألم يأمرك أبوك بطاعتي؟

فأمضي معه صاغراً كارهاً، حتى إذا ابـتعدنا عن المدينة وشملنا الظلام، قال لي:

اصبـر يا بـني.. فقـد كتب الله لوالديك المؤمنين السعادة على يد ديوان التفتيش.

ويخلص الغلام إلى بــر المغرب ويكون منه العالم المصنف سيدي محمد بن عبد الرفيع الأندلسي وينفع الله به وبتصانيفه.

ترجمة صاحب القصة:

محمد بن رفيع الأندلسي: هو محمد بن عبد الرفيع بن محمد الشريف الحسيني الجعفري المرسي الانتلسي، سـكن تونس، ذكر الزركلى(١) ما جاء بـخطه في نهاية كتابه الأنوار النبـوية وهو "وقـع الفراغ من جمعه وتحـرير فصوله وكتبـه عشـية يوم الجمعة الزهراء بحضرة تونس العلية الخضراء عام ١٠٤٤ ... الي قوله: علي يد جامعه وكاتبـه العبـد إلي الله محمد الرفيعى الشريف الجعفرى الأندلسى المرسـى المالكي الموثى طريقة ومذهبـاً وبأحـد الحـرمين الشريفين إن شاء الله مدفنا" انتهي. توفى سنة ١٠٥٢ للهجرة.

ذكر هذه القصة الواقـعية الأسـتاذ المرحـوم علي الطنطاوي - في كتابه قصص من التاريخ.

* *

* *

محاكم التفتيش وإبادة المسلمين في الأندلس

قـــال الله تعالى: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ {١}وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ {٢}وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ {٣}قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ {٤}الـنَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ {٥}إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ {٦} وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِيـــنَ شُهُودٌ {٧}وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ {٨} الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ {٩}إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِيـنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) [سورة البروج].

وقال الله تعالى: (كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيـــكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ {٨}) [سورة التوبة].

وعَنْ أَبي عبد اللَّه خَبابِ بـنِ الأَرتِ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: شكونا إِلى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تسـتنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: >قد كان مِنْ قبـلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمِنْشـار فيوضع علَى رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشـاط

الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عَنْ دينه! والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب مِنْ صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب عَلَى غنمه ولكنكم تستعجلون!> رواه البخاري.

سقطت غرناطة آخر قلاع المسلمين في إسبانيا- سنة (٨٩٧ هـ=١٤٩٢م)، وكان ذلك نذيرًا بسقوط صرح الأمة الأندلسية وكانت مأساة المسلمين هناك من أفظع مآسي التاريخ؛ حيث شهدت تلك الفترة أعمالا بربرية وحشية ارتكبتها محاكم التحقيق (التفتيش)؛ لتطهير أسبانيا من آثار الإسلام والمسلمين، وإبادة تراثهم الذي ازدهر في هذه البلاد زهاء ثمانية قرون من الزمان.

وهاجر كثير من مسلمي الأندلس إلى الشمال الإفريقي ؛ فرارًا بدينهم وحريتهم من اضطهاد النصارى الأسبان لهم، وعادت أسبانيا إلى دينها القديم، أما من بقي من المسلمين فقد أجبر على التنصر أو الرحيل، وأفضت هذه الروح النصرانية لمتعصبة إلى مطاردة وظلم وترويع المسلمين العزل، انتهى بتنفيذ حكم الإعدام ضد أمة ودين على أرض أسبانيا.

ونشط ديوان التحقيق أو الديوان المقدس الذي يدعمه العرش والكنيسة في ارتكاب الفظائع ضد الموريسكيين (المسلمين المتنصرين)، وصدرت عشرات القرارات التي تحول بين هؤلاء المسلمين ودينهم ولغتهم وعاداتهم وثقافتهم، فقد أحرق الكردينال "خمينيث" عشرات الآلاف من كتب الدين والشريعة الإسلامية، وصدر أمر ملكي يوم (٢٢ ربيع أول ٩١٧ هـ/٢٠ يونيو ١٥١١) يلزم جميع السكان الذي تنصروا حديثا أن يسلموا سائر الكتب العربية التي لديهم، ثم تتابعت المراسيم والأوامر الملكية التي منعت التخاطب باللغة العربية وانتهت بفرض التنصير الإجباري على المسلمين، فحمل التعلق بالأرض وخوف الفقر كثيرًا من المسلمين على قبول التنصر ملاذًا للنجاة، ورأى آخرون أن الموت خير ألف مرة من هذا الكفر، وفر آخرون بدينهم، وكتبت نهايات متعددة لمأساة واحدة هي رحيل الإسلام عن الأندلس.

محاكم التفتيش

توفي فرناندو الخامس ملك إسبانيا في (١٧ ذي الحجة ٩٢١ هـ=٢٣ يناير ١٥١٦م) وأوصى حفيده شارل الخامس بحماية الكاثوليكية والكنيسة واختيار المحققين ذوي الضمائر الذين يخشون الله لكي يعملوا في عدل وحزم لخدمة الله، وتوطيد الدين الكاثوليكي، كما يجب أن يسحقوا طائفة محمد!

وقد لبث "فرناندو" زهاء عشرين عامًا بعد سقوط الأندلس ينزل العذاب والاضطهاد بمن بقي من المسلمين في أسبانيا، وكانت أداته في ذلك محاكم التحقيق التي أنشئت بمرسوم بابوي صدر في (رمضان ٨٨٨ هـ= أكتوبر ١٤٨٣م) وعين القس "توماس دي تركيمادا" محققا عامًا لها ووضع دستورًا لهذه المحاكم الجديدة وعددًا من اللوائح والقرارات.

التنصير الإجباري

تنفس الموريسكيون الصعداء بعد موت فرناندو وهبت عليهم رياح جديدة من الأمل، ورجوا أن يكون عهد "شارل الخامس" خيرًا من سابقه، وأبدى الملك الجديد في البداية- شيئًا من اللين والتسامح نحو المسلمين والموريسكيين، وجنحت محاكم التحقيق إلى نوع من الاعتدال في مطاردتهم، وكفت عن التعرض لهم في أراجون بسعي النبلاء والسادة الذين يعمل المسلمون في ضياعهم، ولكن هذه السياسة المعتدلة لم تدم سوى بضعة أعوام، وعادت العناصر المتعصبة في البلاط وفي الكنيسة، فغلبت كلمتها، وصدر مرسوم في (١٦ جمادى الأولى ٩٣١ هـ=١٢ مارس ١٥٢٤م) يحتم تنصير كل مسلم بقي على دينه، وإخراج كل من أبى النصرانية من إسبانيا، وأن يعاقب كل مسلم أبى التنصر أو الخروج في المهلة الممنوحة بالرق مدى الحياة، وأن تحول جميع المساجد الباقية إلى كنائس.

الموريسكيون استغاثوا بالإمبراطور شارل الخامس، وبعثوا وفدًا منهم إلى مدريد ليشرح له مظالمهم، فندب شارل محكمة كبرى من النواب والأحبار والقادة وقضاة التحقيق، برئاسة المحقق العام لتنظر في شكوى المسلمين، ولتقرر ما إذا كان التنصير الذي وقع على المسلمين بالإكراه، يعتبر صحيحًا ملزمًا، بمعنى أنه يحتم عقاب المخالف بالموت.

وقد أصدرت المحكمة قرارها بعد مناقشات طويلة، بأن التنصير الذي وقع على المسلمين صحيح لا تشوبه شائبة؛ لأن هؤلاء الموريسكيين سارعوا بقبوله اتقاء لما هو شر منه، فكانوا بذلك أحرارًا في قبوله.

وعلى أثر ذلك صدر أمر ملكي بأن يرغم سائر المسلمين الذين تنصروا كرهًا على البقاء في أسبانيا، باعتبارهم نصارى، وأن ينصر كل أولادهم، فإذا ارتدوا عن النصرانية، قضى عليهم بالموت أو

المصادرة، وقضى الأمر في الوقت نفسه، بأن تحول جميع المساجد الباقية في الحالة إلى كنائس.

وكان قدر هؤلاء المسلمين أن يعيشوا في تلك الأيام الرهيبة، وكانت لوائح الممنوعات ترد تباعًا، وحوت أوامر غريبة منها: حظر الختان، وحظر الوقوف تجاه القبلة، وحظر الاستحمام والاغتسال، وحظر ارتداء الملابس العربية.

من أدوات التعذيب :التمشيط بأمشاط الحديد

محاولات "الموريسكيين" للمقاومة

كان لقرارات هذا الإمبراطور أسوأ وقع لدى المسلمين، وما لبثت أن نشبت الثورة في معظم الأنحاء التي يقطنونها في سرقسطة وبلنسية وغيرهما، واعتزم المسلمون على الموت في سبيل الدين، إلا أن الأسبان كانوا يملكون السلاح والعتاد فاستطاعوا أن يخمدوا هذه الثورات المحلية باستثناء بلنسية التي كانت تضم حشدًا كبيرًا من المسلمين يبلغ زهاء (٢٧) ألف أسرة، فإنها استعصت عليهم، لوقوعها على البحر واتصالها بمسلمي المغرب.

وقد أبدى مسلمو بلنسية مقاومة عنيفة لقرارات التنصير، ولجأت جموع كبيرة منهم إلى ضاحية (بني وزير)، فجردت الحكومة عليهم قوة كبيرة مزودة بالمدافع، وأرغمت المسلمين في النهاية على التسليم والخضوع، وأرسل إليهم الإمبراطور إعلان الأمان على أن يتنصروا، وعدلت عقوبة الرق إلى الغرامة.

وكانت سياسة التهدئة من شارل الخامس محاولة لتهدئة الأوضاع في جنوب الأندلس حتى يتفرغ للاضطرابات التي اندلعت في ألمانيا وهولندا بعد ظهور مارتن لوثر وأطروحاته الدينية لإصلاح الكنيسة وانتشار البروتستانتية؛ لذلك كان بحاجة إلى توجيه كل اهتمامه واهتمام محاكم التحقيق إلى "الهراطقة" في شمال أوروبا، كما أن قيام محاكم التحقيق بما يفترض أن تقوم به كان يعني إحراق جميع الأندلسيين؛ لأن الكنيسة تدرك أن تنصرهم شكلي لا قيمة له، يضاف إلى ذلك أن معظم المزارعين الأندلسيين كانوا يعملون لحساب النبلاء أو الكنيسة، وكان من مصلحة هؤلاء الإبقاء على هؤلاء المزارعين وعدم إبادتهم.

وكان الإمبراطور شارل الخامس حينما أصدر قراره بتنصير المسلمين، وعد بتحقيق المساواة بينهم وبين النصارى في الحقوق والواجبات، ولكن هذه المساواة لم تتحقق قط، وشعر هؤلاء أنهم ما زالوا موضع الريب والاضطهاد، ففرضت عليم ضرائب كثيرة لا يخضع لها النصارى، وكانت وطأة الحياة تثقل عليهم شيئًا فشيئًا، حتى أصبحوا أشبه بالرقيق والعبيد، ولما شعرت السلطات بميل الموريسكيين إلى الهجرة، صدر قرار في سنة (٩٤٨ هـ=١٥١٤م)، يحرم عليهم تغيير مساكنهم، كما حرم عليهم النزوح إلى بلنسية التي كانت دائمًا طريقهم المفضل إلى الهجرة، ثم صدر قرار بتحريم الهجرة من هذه الثغور إلا بترخيص ملكي، نظير رسوم فادحة.

وكان ديوان التحقيق يسهر على حركة الهجرة ويعمل على قمعها بشدة.

الألخميادو

وكانت الأمة الأندلسية خلال هذا الاستشهاد المحزن، الذي فرض عليها تحاول بكل وسيلة أن تستبقي دينها وتراثها، فكان الموريسيكيون بالرغم من دخولهم في النصرانية يتعلقون سرًا بالإسلام، وكثير منهم يؤدون شعائر الإسلام خفية، وكانوا يحافظون على لغتهم العربية، إلا أن السياسة الإسبانية فطنت إلى أهمية اللغة في تدعيم الروح القومية؛ لذلك أصدر الإمبراطور شارل الخامس سنة (٩٣٢ هـ=١٥٢٦م) أول قانون يحرم التخاطب بالعربية على الموريسكيين، ولكنه لم يطبق بشدة؛ لأن هؤلاء الموريسكيين دفعوا له (١٠٠) ألف دوقة حتى يسمح لهم بالتحدث بالعربية، ثم أصدر الإمبراطور فيليب الثاني سنة (٩٦٤ هـ/١٥٦٦م) قانونًا جديدًا يحرم التخاطب بالعربية، وطبق بمنتهى الشدة والصرامة، وفرضت القشتالية كلغة للتخاطب والتعامل، ومع ذلك وجد الموريسكيون في القشتالية متنفسًا لتفكيرهم وأدبهم، فكانوا يكتبونها سرًا بأحرف عربية، وأسفر ذلك بمضي الزمن عن خلق لغة جديدة هي "ألخميادو" وهي تحريف إسباني لكلمة "الأعجمية"، ولبثت هذه اللغة قرنين من الزمان سرًا مطمورًا، وبذلك استطاعوا أن يحتفظوا بعقيدتهم الإسلامية، وألف بها بعض الفقهاء والعلماء كتبًا عما يجب أن يعتقد المسلم ويفعله حتى يحتفظ بإسلامه، وشرحوا آيات القرآن

باللغة الألخميادية وكذلك سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان من أشهر كتاب هذه اللغة الفقيه المسمى "فتى أبيرالو" وهو مؤلف لكتب التفسير،


ونشروا بالمناشير في ديوان التفتيش

وتلخيص السنة، ومن الشعراء محمد ربدان الذي نظم كثيرًا من القصائد والأغنيات الدينية؛ وبذلك صمد الموريسيكيون في وجه مساعي المنصرين الذين لم تنجح جهودهم التبشيرية والتعليمية والإرهابية في الوصول إلى تنصير كامل لهؤلاء الموريسيكيين، فجاء قرار الطرد بعد هذه الإخفاقات.

ولم تفلح مساعي الموريسيكيين في الحصول على دعم خارجي فعال من الدولة العثمانية أو المماليك في مصر، رغم حملات الإغارة والقرصنة التي قام بها العثمانيون والجزائريون والأندلسيون على السفن والشواطئ الأسبانية، ودعم الثوار الموريسيكيين.

واستمرت محاكم التحقيق في محاربة هؤلاء المسلمين طوال القرن السادس عشر الميلادي، وهو ما يدل على أن آثار الإسلام الراسخة في النفوس بقيت بالرغم من المحن الرهيبة وتعاقب السنين، ولعل من المفيد أن نذكر أن رجلاً أسبانيًا يدعى "بدية" توجه إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج سنة (١٢٢٢هـ=١٨٠٧م) أي بعد ٣٢٩ سنة من قيام محاكم التحقيق.

وبعد مرور أربعة قرون على سقوط الأندلس، أرسل نابليون حملته إلى أسبانيا وأصدر مرسوماً سنة ١٨٠٨ م بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الأسبانية.

ولنستمع إلى هذه القصة التي يرويها لنا أحد ضباط الجيش الفرنسي الذي دخل إلى إسبانيا بعد الثورة الفرنسية (كتب (الكولونيل ليموتسكي) أحد ضباط الحملة الفرنسية في إسبانيا قال: "كنت سنة ١٨٠٩ ملحقاً بالجيش الفرنسي الذي يقاتل في إسبانيا وكانت فرقتي بين فرق الجيش الذي احتل (مدريد) العاصمة وكان الإمبراطور نابليون أصدر مرسوماً سنة ١٨٠٨ بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الإسبانية غير أن هذا الأمر أهمل العمل به للحالة والإضطرابات السياسية التي سادت وقتئذ.

وصمم الرهبان الجزوبت أصحاب الديوان الملغى على قتل وتعذيب كل فرنسي يقع في أيديهم انتقاماً من القرار الصادر وإلقاءً للرعب في قلوب الفرنسيين حتى يضطروا إلى إخلاء البلاد فيخلوا لهم الجو.

وبينما أسير في إحدى الليالي أجتاز شارعاً يقل المرور فيه من شوارع مدريد إذ باثنين مسلحين قد هجما عليّ يبغيان قتلي فدافعت عن حياتي دفاعاً شديداً ولم ينجني من القتل إلا قدوم سرية من جيشنا مكلفة بالتطواف في المدينة وهي كوكبة من الفرسان تحمل المصابيح وتبيت الليل ساهرة على حفظ النظام فما أن شاهدها القاتلان حتى لاذا بالهرب. وتبين من ملابسهما أنهما من جنود ديوان التفتيش فأسرعت إلى (المارشال سولت) الحاكم العسكري لمدريد وقصصت عليه النبأ وقال لا شك بأن من يقتل من جنودنا كل ليلة إنما هو من صنع أولئك الأشرار لا بد من معاقبتهم وتنفيذ قرار الإمبراطور بحل ديوانهم والآن خذ معك ألف جندي وأربع مدافع وهاجم دير الديوان واقبض على هؤلاء الرهبان الأبالسة .."

حدث إطلاق نار من اليسوعيين حتى دخلوا عنوة ثم يتابع قائلاً "أصدرتُ الأمر لجنودي بالقبض على أولئك القساوسة جميعاً وعلى جنودهم الحراس توطئة لتقديمهم إلى مجلس عسكري ثم أخذنا نبحث بين قاعات وكراس هزازة وسجاجيد فارسية وصور ومكاتب كبيرة وقد صنعت أرض هذه الغرفة من الخشب المصقول المدهون بالشمع وكان شذى العطر يعبق أرجاء الغرف فتبدو الساحة كلها أشبه بأبهاء القصور الفخمة التي لا يسكنها إلا ملوك قصروا حياتهم على الترف واللهو، وعلمنا بعد أنّ تلك الروائح المعطرة تنبعث من شمع يوقد أمام صور الرهبان ويظهر أن هذا الشمع قد خلط به ماء الورد".

"وكادت جهودنا تذهب سدى ونحن نحاول العثور على قاعات التعذيب، إننا فحصنا الدير وممراته وأقبيته كلها. فلم نجد شيئاً يدل على وجود ديوان للتفتيش. فعزمنا على الخروج من الدير يائسين، كان الرهبان أثناء التفتيش يقسمون ويؤكدون أن ما شاع عن ديرهم ليس إلا تهماً باطلة، وأنشأ زعيمهم يؤكد لنا براءته وبراءة أتباعه بصوت خافت وهو خاشع الرأس، توشك عيناه أن تطفر بالدموع، فأعطيت الأوامر للجنود بالاستعداد لمغادرة الدير، لكن اللفتنانت "دي ليل" استمهلني قائلاً: أيسمح لي

الحقد الصليبي .. قديم جديد

الكولونيل أن أخبره أن مهمتنا لم تنته حتى الآن؟!!. قلت له: فتشنا الدير كله، ولم نكتشف شيئاً مريباً. فماذا تريد يا لفتنانت؟!.. قال: إنني أرغب أن أفحص أرضية هذه الغرف فإن قلبي يحدثني بأن السر تحتها.

عند ذلك نظر الرهبان إلينا نظرات قلقة، فأذنت للضابط بالبحث، فأمر الجنود أن يرفعوا السجاجيد الفاخرة عن الأرض، ثم أمرهم أن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة وكنا نرقب الماء فإذا بالأرض قد ابتلعته في إحدى الغرف. فصفق الضابط "دي ليل" من شدة فرحه، وقال ها هو الباب، انظروا، فنظرنا فإذا بالباب قد انكشف، كان قطعة من أرض الغرفة، يُفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جانب رجل مكتب رئيس الدير.
أخذ الجنود يكسرون الباب بقحوف البنادق، فاصفرت وجوه الرهبان، وعلتها الغبرة.
وفُتح الباب، فظهر لنا سلم يؤدي إلى باطن الأرض، فأسرعت إلى شمعة كبيرة يزيد طولها على متر، كانت تضئ أمام صورة أحد رؤساء محاكم التفتيش السابقين، ولما هممت بالنزول، وضع راهب يسوعي يده على كتفي متلطفاً، وقال لي: يابني: لا تحمل هذه الشمعة بيدك الملوثة بدم القتال، إنها شمعة مقدسة.

قلت له، يا هذا إنه لا يليق بيدي أن تتنجس بلمس شمعتكم الملطخة بدم الأبرياء، وسنرى من النجس فينا، ومن القاتل السفاك!؟!.
وهبطت على درج السلم يتبعني سائر الضباط والجنود، شاهرين سيوفهم حتى وصلنا إلى آخر الدرج، فإذا نحن في غرفة كبيرة مرعبة، وهي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، وربطت بها سلاسل من أجل تقييد المحاكمين بها.
وأمام هذا العمود كانت المصطبة التي يجلس عليها رئيس ديوان التفتيش والقضاة لمحاكمة الأبرياء. ثم توجهنا إلى غرف التعذيب وتمزيق الأجسام البشرية التي امتدت على مسافات كبيرة تحت الأرض.
رأيت فيها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى القشعريرة والتقزز طوال حياتي.

رأينا غرفاً صغيرةً في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقى سجين الغرف العمودية واقفاً على رجليه مدة سجنه حتى يموت، و يبقى سجين الغرف الأفقية ممداً بها حتى الموت، و تبقى الجثث في السجن الضيق حتى تبلى، ويتساقط اللحم عن العظم، وتأكله الديدان، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى فتحوا نافذة صغيرة إلى الفضاء الخارجي.
وقد عثرنا في هذه الغرف على هياكل بشرية ما زالت في أغلالها.
كان السجناء رجالاً ونساءً، تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشرة والسبعين، وقد استطعنا إنقاذ عدد من السجناء الأحياء، وتحطيم أغلالهم، وهم في الرمق الأخير من الحياة.
كان بعضهم قد أصابه الجنون من كثرة ما صبوا عليه من عذاب، وكان السجناء جميعاً عرايا، حتى اضطر جنودنا إلى أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها بعض السجناء.
أخرجنا السجناء إلى النور تدريجياً حتى لا تذهب أبصارهم، كانوا يبكون فرحاً، وهم يقبّلون أيدي الجنود وأرجلهم الذين أنقذوهم من العذاب الرهيب، وأعادوهم إلى الحياة، كان مشهداً يبكي الصخور.
ثم انتقلنا إلى غرف أخرى، فرأينا فيها ما تقشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات رهيبة للتعذيب، منها آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم البشري، كانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجيا، حتى يهشم الجسم كله، ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة، والدماء الممزوجة باللحم المفروم، هكذا كانوا يفعلون بالسجناء الأبرياء المساكين.
ثم عثرنا على صندوق في حجم جسم رأس الإنسان تماماً، يوضع فيه رأس الذي يريدون تعذيبه بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسلاسل والأغلال حتى لا يستطيع الحركة، وفي أعلى الصندوق ثقب تتقاطر منه نقط الماء البارد على رأس المسكين بانتظام، في كل دقيقة نقطة، وقد جُنّ الكثيرون من هذا اللون من

صور للتنكيل بالمسلمين لا تخطر على بال بشر
من أدواة التعذيب تقطيع الأعضاء بالأدوات الحادة

العذاب، ويبقى المعذب على حاله تلك حتى يموت.
وآلة أخرى للتعذيب على شكل تابوت تثبت فيه سكاكين حادة. كانوا يلقون الشاب المعذب في هذا التابوت، ثم يطبقون بابه بسكاكينه وخناجره. فإذا أغلق مزق جسم المعذب المسكين، وقطعه إرباً إرباً.



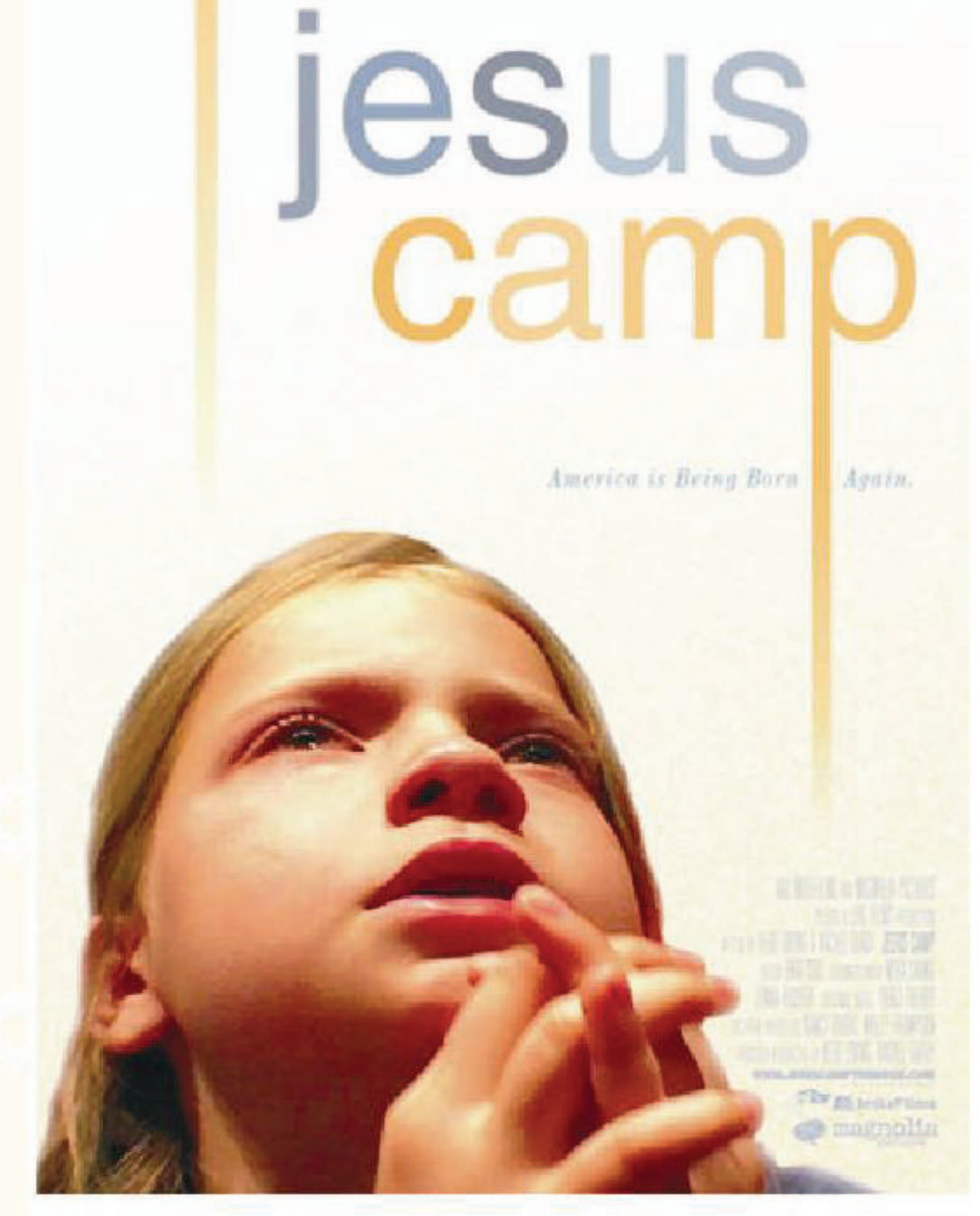
تابوت السيدة الجميلة التي يلقى فيها الشب ثم يطبق عليه

كما عثرنا على آلات كالكلاليب تغرز في لسان المعذب ثم تشد ليخرج اللسان معها، ليقص قطعة قطعة، وكلاليب تغرس في أثداء النساء وتسحب بعنفٍ حتى تتقطع الأثداء أو تبتر بالسكاكين.
وعثرنا على سياط من الحديد الشائك يُضرب بها المعذبون وهم عراة حتى تتفتت عظامهم، وتتناثر لحومهم.
وصل الخبر إلى مدريد فهب الألوف ليروا وسائل التعذيب فأمسكوا برئيس اليسوعيين ووضعوه في آلة تكسير العظام فدقت عظامه وسحقتها سحقاً وأمسكوا كاتم سره وزفوه إلى السيدة الجميلة وأطبقوا عليه الأبواب فمزقته السكاكين ثم أخرجوا الجثتين وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك. ولم تمض نصف ساعة حتى قضى الشعب على حياة ثلاثة عشر راهباً ثم أخذ ينهب ما بالدير.

****

وفي عام ٢٠٠٣ م وقف خوسيه اثنار رئيس وزراء أسبانيا أمام طلاب جامعة جورج تاون الأمريكية ليقول: (أؤكد لكم ان دعم الحكومة الأسبانية للحرب على العراق لها جذورا ضاربة في التاريخ منذ ان غزاها المورس وان أول خلية لتنظيم القاعدة في أسبانيا كانت بقيادة طارق بن زياد عام ٩٢هـ وليس كما يعتقد القاضي غارثون ان أول خلية للقاعدة يقودها أبو الدحداح تأسست في نوفمبر ٢٠٠١م) !!

معسكرات يسوع
معسكرات الحقد الصليبي



شاهدت على مدى جزأين مطولين في قناة الجزيرة الوثائقية فيلمًا رهيبًا عن معسكرات يسوع أو (المسيح) في أمريكا، وشاهدت كيف يخطط الكبار في أمريكا والغرب لزرع الحقد على البشرية في نفوس الأطفال البريئة، وكيف (يصهينونهم) ويعطونهم المطارق والشواكيش لتحطيم الأكواب الفخارية الجميلة في هستيريا تحفيزًا لهم على تكسير رؤوس مخالفيهم أعداء يسوع..
وشاهدتهم كيف يزرعون العدوانية والحقد في نفوس أبنائهم بطريقة علمية تربوية مدروسة ومنظمة مخيفة، وكيف يدفعون الأطفال إلى التشنج والعنف وكراهية الرحمة واللين إرضاء للرب يسوع، حتى يرضى عليهم يسوع ويطعمهم ويسقيهم ويقويهم ويحميهم من أعدائهم.
ثم فجأة أعطوهم العصي الغليظة وطلبوا منهم بعد أن حمسوهم أن يضربوا في الهواء بشدة لتحطيم رؤوس

الأعداء، وفجأة يقول أحـد الأطفال: أنا عندما أرى طفلاً غير مسيحي أشعر بالغثيان والاشـمئزاز ولا أطيق الجلوس بجواره.

وفي الفيلم شاهدت كيف ركزوا على أشـد الأطفال تشنجًا وظلوا يحمسونه ويحمسـونه ويحمسـونه، والدم يحتقن في وجهه حـتى كاد أن يغمى عليه من شدة التحريض، والكل يصفق ويصفق ويصفق له، إنهم يحرضونهم على العالم، كل العالم، ويقـولون لهم: يسوع يطلب منكم ذلك، يسوع خالقـكم يطلب منكم ذلك، علينا أن نعمل بكل شيء في الإنجيل لأن الرب يسوع يريد ذلك، ثم أتوا لهم بصورة بالحـجم الطبيعي لبوش الصغير وقالوا لهم: هذا رئيسنا، هذا خادم بلادنا، هذا محقق أحلامنا في العالم، هذا بعثه يسـوع ليخلصنا من غير المسيحـيين أعداء الله يسوع.

يالها من كلمات رهيبـة , وتربـية مخيفة.. تلك الكلمات والسلوكيات التي سمعتها وشـاهدتها وهم يلقـنونها للأطفال الأبـرياء والبـنات يصرخن ويتشنجن والبنون يصرخون ويتشنجون والمعلمون والمعلمات يصرخون ويتشـنجون ويقـولون لهم: (أنتم مبعوثوا المسـيح لتغيير العالم، يسـوع الإله يطلب منا ذلك , فعلينا تغيير صورة العالم، وجعـل أمريكا موحدة تحت راية المسيح وسـلطة يسـوع ورئيسنا المطيع ليسوع).. ثم دربـوا طفلاً ليقـدم درساً للوعظ كرر نفس العبارات بحـماس عجيب، وسـلك نفس الطريقـة، وظل الجميع يتهكم على طريقة الوعظ المؤدبة والرقيقة والهادئة التي كانت تؤدى في الكنيسة سابقا.

ياللهول، ماذا سـيصنع أبـناؤنا مع هذا الجيل الأمريكي الدموي الأعمى المتعصب والمتشنج ؟!!

ماذا سيفعل أبناؤنا عندنا يركب أحد هؤلاء الطائرة ليقصفنا بصفتنا من أعداء يسوع ومن أتباع الشطان ؟!!

.. لقـد علمت لماذا كان الجنود الأمريكان يتلذذون وينتشون بتعذيب المسلمين في العراق وأفغانسـتان وجوانتنامو، وكيف كانو يفرحون ويرقصون على صراخ النساء والأطفال والرجال.هذه هي التربـية الإرهابـية الحقيقـية التي تهدد العالم، وهذا هو الطريق الشـيطاني لتدمير العالم بـأيدي هؤلاء الأطفال الذين زرعوا الحقد في جيناتهم.
أين المحبة التي جاء بها المسيح عليه السـلام ؟ أين الرحمة التي أودعها الله تعالى في نفوس مخلوقاته ؟



وأين دعاة الحـرية والديمقـراطية والتسـامح في العالم؟!!

ما شاهدته شيء مخيف مخيف مخيف.. العالم مهدد بمخرجات معسكرات يسوع في أمريكا والغرب، تلك المعسـكرات التي تدمج العنف وتؤصله في النفوس لينتقل بـمرور الأجيال إلى الجينات، ليتلذذ الواحـد منهم بتعذيب كل مخالف له في العقـيدة ويدمر العالم مادام ذلك يرضي الرب يسوع الذي ضحى بحـياته ليخصلهم من خطيئة أبيهم آدم وأمهم حـواء الأفعى الشريرة.

الإرهاب يُزرع في نفوس هؤلاء ليكون سـلوكا مألوفا.. إنها تربية محاكم التفتيش، وتربية سـجون الصهاينة، وتربية تدمير مدرسة بحر البقر في مصر على رؤوس الأطفال، وتربـية تدمير ملجأ العامرية في العراق وجنوب لبـنان وقـانا وقـتل الأسـرى المصريين عام ١٩٦٧م..
إنها التربـية الدموية التي يمهد لها الصهاينة والصليبـيون الجدد في أمريكا ومن يتطابـق معهم ويلف لفهم في العالم..
إنها التربية التي يحـاول العلمانيون (بـفتح العين) العرب والليبراليون العرب تمهيد بـلادنا للانهزام أمام مخرجاتها. إنها المؤامرة على كل خلق عظيـم وكل سلوك قويم.. إنها المؤامرة التي تمهد لها معظم الجمعيات المدنية الممولة مـن أعدائنـا، جمعيـات التحـريض على الدين والعفة ومواطن القـوة في أجيالنا..

إنها المؤامرة التي يصف فيها بـعض كتابـنا كل إسلامي بأنه طالباني وتكفيري وظلامي وإرهابي.. كل هؤلاء يحـرثون ويمهدون الأرض في ديارنا تمهيدًا للانهزام أمام الجيل الشيطاني الذي يُربى الآن في معسكرات يسوع في أمريكا، كفانا الله وإياكم شر هؤلاء الذين يخططون لإبادتنا ومحونا من الوجود.

الإساءات المتكررة للإسلام .. وجدان صليبي .. وليس حرية تعبير



د. محمد مورو

لوحظ في السنوات الأخيرة ارتفاع نبرة الإساءة إلى الإسلام والهجوم على رموزه في الأوساط الثقافية والفكرية بل والسياسية في الغرب.

وفي الحقيقة فإن الكيد للإسلام والإساءة له ليس أمراً جديداً على الغرب ، الجديد فقط هو ارتفاع تلك النبرة والأمر لا يرتبط هنا بحالة رد الفعل المزعومة بسبب أحداث ١١ سبتمبر ولكنه يضرب في جذور تلافيف العقل الغربي قبل سبتمبر ٢٠٠١ وبعده ، فالجندي الإيطالي الذي كان يذهب إلى ليبيا لاحتلالها كان ينشد لأمه:

أماه..
أتمي صلاتك..
لا تبك، بل أضحكي وتأملي،
أنا ذاهب إلى طرابلس،
فرحاً مسروراً
سأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة
سأحارب الديانة الإسلامية
سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن.

وكتبت جريدة فرنسية سنة ١٩٢٦ تقول: "لقد استسلم عبد الكريم الخطابي من غير شروط، وخضع لحماية فرنسا، ذلك ما كنا نبغي، فالحادث مهم، فهو يضرب الإسلام في الصميم, وبوسعنا الآن أن نفتك بهذا الدين الفتك الذريع".

والجنرال بيجو القائد العسكري الفرنسي في الجزائر حدد هدف الغزو " أن أيام الإسلام الأخيرة في الجزائر قد اقتربت " ، وكان يقتل الرجال والنساء ويأتي بالأطفال ويسلمهم إلى القسيس بريمو " الذي صاحب الغزو الفرنسي "قائلاً له " حاول يا أبت أن تجعلهم مسيحيين " ، ويلخص نفس الجنرال المسألة بكاملها قائلاً " إن العرب لن يكونوا لفرنسا إلا حينما يصبحون مسيحيين ".

وقبل ذلك فإن المسألة برمتها يلخصها قول الأب أربان الثاني مفجر الحروب الصليبية في مجمع كلير مونت عام ١٠٩٥ م: "أيها الجنود المسيحيون . . . اذهبوا و خلصوا البلاد المقدسة من أيدي الأشرار ، اذهبوا واغسلوا أيديكم بدماء أولئك المسلمين الكفار".

نحن إذن أمام وجدان صليبي وعداء وحقد على الإسلام قديم جديد وليست عملية الإساءة إلى الإسلام إلا الجزء الطافي من جبل الجليد بل إن عملية محاولة اجتثاث الإسلام ذاته هي محاولة لم تتوقف قط منذ مئات السنين وشهدت عمليات إبادة ، مذابح تبشير ، حرب ثقافية غزوات... إلخ.

وأعتقد أن السبب الرئيسي لتلك المحاولات المستمرة لتشويه الإسلام والإساءة إلى رموزه بالإضافة إلى الحقد الصليبي المعروف هو نوع من الهزيمة الداخلية في العقل المسيحي الغربي فالخوف من انتشار نور الإسلام ، وبسبب صحة العقيدة الإسلامية بكل المقاييس العقلية والنفسية والعلمية والأدبية دفعت دهاقنة الغرب لمحاولة تشويه الإسلام ومن ثم حجب نوره عن أعين الأوروبيين .

والإساءة إلى الإسلام لا تتم في الغرب فقط ، بل يقوم بها أيضاً عملاء محليين يدفع لهم الغرب هذا الثمن من الأموال والجوائز والمنح العلمية والأدبية... إلخ، وهؤلاء ما هم إلا طابور خامس يردد أقول مستشرقي الغرب كالببغاء ، وهم بالطبع لا يحزون باحترام أهاليهم ، ولا احترام الغرب ذاته لأنهم مجرد عملاء .

بالنسبة لنا كمسلمين فإن الإساءة إلى الإسلام هي نوع من الكفر البواح ، ولا علاقة لها من قريب أو بعيد بحرية التعبير المزعومة ، وتقتضي بالطبع عقوبة يقررها العلماء المسلمون ولكن الغرب يزعم أن حرية التعبير هي الدافع وراء هذا السيل من الإساءات

الحقد الصليبي .. قديم جديد



للإسلام ، وأنه من ثم لا يستطيع أن يصدر قرارات إدارية بمنع ذلك لأن ذلك يتعارض مع الحرية التعبير المزعومة ، وفي الحقيقة فإن ذلك كذب وخداع ، فحرية التعبير المزعومة تلك لم تمنع بلداً كفرنسا من مصادرة كتب أحمد ديدات في فرنسا ولم تمنع من محاكمة روجيه جارودي لمجرد أنه شكك في أرقام الضحايا اليهود في أفران هتلر .

وهي أمور تدخل في باب السب والقذف وليس حرية التعبير نفس الأمر ينطبق على تصريحات قساوسة النصارى في أمريكا أمثال بات روبرتسون وجراهام بل الذي وصف رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم بالهمجية والعدوان ، وتنطبق على حاخامات اليهود من أمثال " عوفاديا يوسف " الذي وصف المسلمين بالصراصير والحشرات التي ينبغي سحقها بالأقدام .

الإساءة للإسلام لم تتوقف عند هذا الحد ، ولكنها وصلت إلى تمزيق المصاحف وتلويثها بالنجاسات والسير عليها بالأقدام في معسكر جوانتانامو واعترفت الإدارة الأمريكية بذلك ! ! .

وكذلك نفس الشيء في سجن "مجدو" الإسرائيلي ، الأمر الذي دفع المعتقلين الفلسطينيين إلى الإضراب عن الطعام لوقف الإساءة إلى رموز الإسلام .

والحملة الصحفية في الدانمارك والتي تم فيها التطاول على الإسلام ورسول الإسلام تأتي في نفس الإطار فإذا أصبح المسلمون زعمت حكومات الغرب أن ذلك خارج إطار سلطاتها لأنه يدخل في باب حرية التعبير المزعومة ، والحقيقة أنه سب وقذف حتى بمعايير الغرب وقوانينه ذاتها .

والحديث الغربي عن الحرية والديمقراطية أصبح حديثاً مفضوحاً ، بعد ما حدث في جوانتانامو وأبو غريب وقلعة جانجي بأفغانستان وغيرها مما رصدته واعترفت به منظمات حقوقية دولية لا يمكن اتهامها بالانحياز إلى الإسلام مثلاً .

ولكن على أي حال سنجاري الغرب في أكاذيبه حول حرية التعبير ، ونقبل أن نأخذ بمعاييره مؤقتاً للحكم على سبيل الإساءات للإسلام في الغرب .

فالمدعو سلمان رشدي مثلاً الذي احتفى به الغرب ومنحه الحماية والجوائز والتقدير لم يقدم كتاباً مثلاً في مناقشة الأفكار الإسلامية بل قدم قذفاً صريحاً في حق أمهات المؤمنين رضوان الله عليهم ، وأساء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة وافترى على الجميع افتراءات منحطة وكلها أمور تخضع للعقوبة في أي قانون غربي ، فحرية التعبير غير السب والقذف والافتراء والكذب بالطبع .

نفس الأمر ينطبق على المدعوة " تسليمة نسرين " وهي كاتبة بنغالية الأصل حذت حذو سلمان رشدي .

في الإطار نفسه سمعنا تصريحات من رئيس الوزراء الإيطالي " بيرلسكوني " الذي وصف الحضارة الإسلامية بالانحطاط والكاتبة الإيطالية " إيريا فلاشيا " التي وصفت الإسلام بكل الأوصاف المنحطة من أنه دين متخلف ووثني وعدواني بل ومقيد ! ! .

والحقيقة المريرة أن هناك أولا ضعف عام لدى المسلمين وحكوماتهم وجماعاتهم و هيئاتهم الدينية والدبلوماسية على حد سواء تغري الآخرين بامتهان المقدسات الإسلامية والإساءة إلى الرموز الدينية ووصل الأمر إلى حد الدعوة لضرب الكعبة الشريفة وهدم مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهي دعوة تكررت كثيراً في الصحف الأمريكية .

والسؤال الآن . . . أين المعتصم الذي سير الجيوش لمعاقبة الرومان لمجرد الاعتداء على سيدة واحدة مسلمة ، والتي هتفت في عمورية " وامعتصماه " فاستمع إليها الخليفة المعتصم في بغداد على بعد مئات الأميال ، واستجاب لندائها ولكن حكام العرب والمسلمين لم يعد فيهم معتصم ولا حول ولا قوة إلا بالله .

{يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [التوبة:٣٢].